-المحاضرة رقم : (11) : شعرية السرد الصوفي

لتحديد شعرية السرد الصوفي علينا الوقوف على عتبة أولية في ضبط المفاهيم ، مثل :مفهوم الأدب الصوفي ، ونشأته وأهم مصادره وخصائه و أبرز مؤلفاته وأهم نماذج القصص السردي الصوفي، كالآتي:

1-مفهوم الأدب الصوفي:

يشير "الطاهر بونابي" إلى مفهوم الأدب الصوفي أنه : (الأدب الذي أنتجه الزهاد والصوفية بمختلف اتجاهاتها السنية والفلسفية ، ويبحث في النفس الإنسانية بعمق فلسفي يسعى لتطهير النفس والروح من حب الدنيا وزينتها وإدخال الطمأنينة إليها، ويطرح في أكمل صوره الفنية التجريدية كوامن النفس من حب وجمال وقيم أخلاقية ومعرفية وفي مضمونه أيضا الخطوات التي يتدرجها السالك-المريد-في تطهير نفسه والبلوغ بها مرتبة الكشف، كل ذلك يعكس الروح الدينية العالية عندهم ، وهو إما قصائد منظمة أم نثرا فنيا راقي البيان وأغراضه هي : (الامتداح النبوية ، رسائل الشوق إلى الأماكن المقدسة ، الأحزاب والأوراد، التوسلات، الحكم ، الرسائل الصوفية "المكاتبات السنية" ، الحكايات الكرمية ،شعر الزهد، شعر التصوف السني ، شعر التصوف الفلسفي) ...) [1].

والنظرة التصوفية كامنة لدى الكائن البشري ، حيث (تكمن البذرة التصوفية في كل إنسان، في إحساس عميق يتمحور حول حقيقة فكرية أساسها تأدية الفرائض واعتناق الدين، تأدية لذاتها وليس ابتغاء لمردوداتها الحسنة في عالم الدنيا أو عالم الآخرة؛ اجتلاب خير وثواب، اجتناب شر وعقاب.. أي كيف يمكن أن تكون العبادة، غاية في نفسها ولا يكون وراؤها هدفاً سوى المحبة والقرب، عند ذلك ستتغير مواقف العابدين إزاء النعم والبلاء الذي ينزل بهم، فيصبح العذاب والأذى، عند الصوفي، اختباراً له وتمحيصاً وتهيئة لتقريبه..

[1] الطاهر بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، الجزائر ، العدد2، 2004، ص18.

فالصوفي حين يناجي ربه (إلهي الكل يطلب منك، وأنا أطلبك) ، فهو على التضاد مع توجه جمهور العابدين في تقلبهم بين الثواب والعقاب، بين الرغبة والرهبة) [1].

-مصادر الأدب الصوفي :

لكل شكل من أشكال الأدب إلا و له مجاله وأعلامه وارهاصاته، وللأدب الصوفي مصادر يستقي منها روحه مثل غيره من الأشكال الأدبية ، ولعل (من أكثر المصادر المشرقية والمغربية والأندلسية التي نهل منها أدب التصوف أفكاره ، هي : كتاب: (الرعاية لحقوق الله) "للحارث بن أسد المحاسبي" (ت243هـ/858م)، و(قوت القلوب) "لأبي طالب المكي "(ت3هـ/9م)، و(الرسالة القشيرية) "لأبي القاسم القشيري"(ت465هـ/1072م) ، و(إحياء علوم الدين) "لأبي حامد الغزالي " (ت505هـ/1111م) ، وهي مصنفات في التصوف السني تطرح الخطوات التي يقطعها السالك بواسطة المجاهدات للوصول إلى النجاة من عقاب الله كما حددها المحاسبي ، وإلى تقويم النفس وتهذيبها عن طريق الإرادة والرياضة لبلوغ بها مرتبة الأنبياء والصاديقين والصلحاء ، ثم النزوع إلى الكشف عن عالم الغيب وهي مرحلة فراغ القلب عما سوى الله كما تبينها الرسالة القشيرية وإحياء علوم الدين) [2].

-شعرية السرد الصوفي:

تتجلى الشعرية السردية في مختلف النصوص الصوفية التي وردت ومن ذلك كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيد الذي يحتوي على حكايات صوفية التي تمتزج مع الشعرية ، ((وكما تكمن براعة السرد التصويريالذي يتقنه لدى إعمال فطنة الاحاطة بمقدرات أحوال الطرب، من ذلك إردافه لصورة طرب ابن فهم الصوفي على غناء نهاية

---

[1] – ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي المكونات ، والوظائف، والتقنيات –دراسة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا دط،2003 ، ص28

[2] الطاهر بونابي ، نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط ، ص21.

مندفعة شادية على وزن البحر البسيط المزهي الهازّ المطرب مع مدود تزيد الإيقاع بلاغة تطريب)) [1]:

أستودع الله في بغداد لي قمرا * بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه**

ودّعته وبودي لو يودّعني * صفوُ الحياة وأنّيلا أودّعه[2]**

نلحظ من المقطع الشعري تصوير مشهد الوداع للحبيب ، كما جاء النص سردي كون يحكي بطريقة فنية شعرية تخييلية للمشهد وهو ما يعرف بالشعر السردي أو الحكائي أو القصصي .

وكما تتناسب جمالية السرد الحكائي التصويري مع أسلوب الحكي ، ويجد أبو حيان التوحيدي مناسبة التعليق على المشهد قائلا: ((فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرّغ في التراب وهاج (...) ويخمش بظفره ، ويركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة في ساعة ، ويخرج في العباءة..))[3] .

نلحظ من النص السردي تناسق في نسج اللغة باستخدام مفردات في سياق تعبيري منسجم بايقاع داخلي ، وهو ما يجسد الشعرية في اللغة السردية .

وعلى هذا الأساس تتجلى شعرية السرد في النظم ، من خلال وصف للحدث أو المشهد أو الشخصية أو سرد قصة ما بطريقة شعرية وهذا الأسلوب يتميز بالجمالية والبراعة الفنية في حسن السبك والنظم وكذا في قوة التركيب وفصاحة الكلم وجزالة اللفظ وهو ما اهتمت به البلاغة العربية . واستفدذ من علومها الكتاب والمؤلفين في مختلف الأشكال السردية القصصية و الحكايات والمقامات وكذا القصص الشعري الأدبي والصوفي .

---

[1] العربي عمّيش، شعرية السرد في الحكايات الصوفية ضمن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، مجلة اللغة الوظيفية ، . جامعة حسيبة بن بوعلي ، الشلف ، الجزائر المجلد 5، العدد2، ص 09.

[2] ينظر : أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الثاني ، ص 167.

[3] العربي عميش ، شعرية السرد في الحكايات الصوفية ضمن كتاب ال؟إمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، ص09.

خصائص السرد الصوفي:

- اللغة:

تعد اللغة الصوفية لغة رمزية عرفانية تواضع عليها أهل العرفان للبوح بما تيسر لهم عن تجاربهم الروحية القلبية، فلغتها المخصوصة التي سعى اهلها إلى استحداثها اصطلاحا فيما بينهم حجبا للسر وعدم المكاشفة، لاسيما أنهم وجدوا " في اللغة العادية عجزا واضحا عن التعبير عن تصوراتهم الوجودية لأنها خارجة عن القوانين العقلية التي تحكم هذه اللغة كما تحكم المجال الإدراكي العادي الذي تعكسه ولهذا كانت اللغة في الخطاب الصوفي لغة فنية لأنها تعكس هذا التفاعل الفني 'المتميز.

إن ما تحويه لغة المتصوفة من فنية يرجع إلى تغير مفهومها عندهم، إذ يتخذ " أبعادا جديدة ويكتسب مقومات متميزة لا نجدها في كتب اللغة والبلاغة ولا فى كتب النقد مما انتهى إلينا من علماء ونقاد السلف ، فهي ليست ألفاظا وجملا عبارات بل" هي الوساطة بينهم وبين حقائقهم وسيلتهم للحب ومنطق أشواقهم ومعرفتهم، ولا يمكن أن تتجاوز اللغة موتها إلا إذا أحياها العاشق ونفخ فيها من روح الحب ما يحيها وينفض عنها غبار العادة والسطحية " . وهذا عن طريق خروجها عن المعيار وانزياحها عن المألوف كون اللغة العادية في نظرهم عاجزة عن إدراك التجربة واستكناه الكينونة ورسم

الوجود ولا بد من استحداث لغة مخصوصة تحمل بواعث الرؤيا تستنير من وميض الشهود لتتجلى في المقام.

- التأويل :

من سمات السرد الصوفي ارتكازه على التأويل وذلك لما في لغته من رمزية تخفي أكثر مما تظهر ذلك أن " لغة التصوف

عموما تتوارى في غموضها الناتج عن غموض تجربة الذوق فهي - إذن - لغة لا صلة لها بالوضوح وليست وسيلة للإبانة يستدعي مقاربتها تأويلا.

- توظيف الحيوان:

لمسنا في السرد الصوفي توظيفا للحيوان وذلك قصة منطق الطير لفريد الدين العطار وهي من النصوص السردية الصوفية التى جعلت من الحيوان رمزا للتعبير عن تجربة الرحلة الصوفية وذلك في بحث مجموع الطيور بقيادة الهدهد عن معلمهم طائر السيمرغ.